

لقاء الحضارات

دكتور نور الدين هاطوم

ذات يوم في عتيق الزمان صحا الجو نفاق الإنسان جماعات قليلة حذاء تدب على أديم الأرض كالقطمان . منتقلة من مكان لمكان ، ساعة وراء رزقها مما يقع تحت يدها من طير أو حيوان أو ثمار أو أعشاب .

في هذه البيئة الطبيعية الأولى ، كان الإنسان ، كالحیوان المفترس ، يجذب الغابات معتمداً على قواه . وكان أملة الوحيد ، وبما أوتى من ذكاء ، أن يسود الأرض ، ويلتمس وسيلة تحقق له الظفر على سائر الحیوان . ولعل أول سلاح تزود به ، ليدافع عن نفسه ، أو ليهاجم به غيره . كان حجراً خشناً ، أو هراوة ، أو عصا . وما كان ليشغل فكره بهم من هموم الدنيا سوى أن يشبع غرائزه ، فيصطاد إذا جاع ، ويستجم إذا تعب ، ويقم حيث يطيب له المقام في كهف ، أو تحت شجرة ، أو أى مأوى يراه أمامه .

وكان عليه أن يتفاهم مع قرينته الطبيعية أو أقربائه من الرجال ، فلجأ إلى الإشارات والحركات والرموز وتقليد أصوات الطبيعة ، ونطق نخرج من حياة الحیوان إلى حياة الإنسان . ثم بدأ يظهر صفاته ومواهبه في البحث عن الأمن والاستقرار بعد الخوف والترحال .

وإنا لنجهل الزمن الذى استطاع فيه الإنسان زراعة الأرض واستنباطها . فقد ظلت هذه البداية سراً من أسرار التاريخ . ومن يدري أن المرأة أول من لجأ إلى الاستقرار من بنى الإنسان لما بها من رقة الطباع ، وضعف الجسم ، فألقت بمصا التیار ، تحت ضرورات الحمل ، بينما كان الرجل يشغل وقته بالصید وجمع القوت ؟ ! ومن يدري بعد أن الزراعة كانت أول اختراع حضارى حققته المرأة عندما تشبثت بالأرض لتخفيف آلام المخاطرة فنبشت بأناملها التراب ، ونبت البذر نباتاً حسناً . وأصبح الإنسان منتجاً للغذاء ، يفكر بمستقبله ، بعد أن كان هائماً على وجهه لا يفكر بعده ؟ ! ومنذ تملكه هذا التفكير بدأت أول مرحلة حضارية ، وانتقل فيها من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار .

وإذا خرج الإنسان من حيوانيته بالطق . وبدأت الحضارة بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار ، ولم يكن الإنسان في الغالب لها مخترعاً ، وربما كانت الطبيعة لها كاشفاً ، من حفيف الأوراق . أو تمايل الأفنان ، أو من شرارة انبعثت عن صاعقة خاطفة ، أو اختلاط بعض المواد الكيماوية مع بعض . فما كان منه إلا أن قلد الطبيعة وأنار طريقه فأمن شر الظلام والبرد ، ثم أفاد منها في الصناعة وصهر للمعادن ، وجعل منها إلهاً يعبد ، ووطأ يمن إليه إذا نأى عنه ، ودليلاً مرشداً إذا ضل به السبيل .

وهيأت الطبيعة المجاورة له وسائل عيشه من النبات والحيوان والتراب ، وتوصل إلى حياة التبادل ، فبدأ عتلا يحمل أشياءه من مكان لمكان على سطح اليابسة ، أو على شجرة عائمة على سطح الماء ، وشرعت حركة التجارة بالمقايضة إلى أن انتهت أخيراً بتبادل العروض والنقود في ظل الحضارات التاريخية .

وأدت الزراعة إلى الملكية الخاصة وتوسيع هذه الملكية ، وإلى تحصيل المرأة والاعتراف على الأولاد والإرث ، وتوزيع العمل ، وتفاوت الأفراد بعد المساواة النسبية ، وإلى انقسام المجتمع إلى طبقات .

وبدأ تنظم المجتمع البشرى فنشأت سلطة الدولة من وجود زعيم قوى دينياً كان أو علمانياً ، وترعرع العلم من محاولة التغلب على قوانين الطبيعة على أيدي الكهان ، ومزج الألوان بالألوان ، والسحر والطلاسم والكهانة والعرافة ، كما بدأ الأدب بالشعر في أوساط الرعاة ، والدين من الرهبة التي تملك البدائي من قوى الطبيعة المحيطة به ، فراح إلى رجل الدين يطلب العون والمواساة لتخفيف آلامه فنشأت العبادة والمعابد والأضاحي والمذابح والسدنة وما إلى ذلك من تسلسل كهنوتي لا يقع تحت حصر . وراحت الأباطيل والحرافات تشيع عن تأثير النجوم في طباع البشر ومصيرهم ، وما زالت هذه الأباطيل حية إلى اليوم عند متشائم منهم ومتفائل ممن يبحثون عن الطوالع في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية وشاشات التلفزيون . ومن يدرى بعد كل هذا أن ما نسميه أباطيل وحديث خرافة ليس إلا نوعاً من الخطأ نسميه العلم .

وما زال الناس يناقشون عن أصل الفن ، فهل نشأ من الغريزة أو إبداع

الإنسان ؟ وما هي صلته بالجمال ؟ ولم تعجب بهذا الجمال ونسرح الطرف في آياته ، بل لم نحاول أن ندعه من جديد ؟ ويبدو أن الرغبة في التزيين وتجميل الجسم البشرية كانت في أصل الفهم ؛ ولا يغرب أن يكون اللباس في البدء نوعاً من الزينة أريد به تحويل الرغبات الجنسية أكثر من حماية الجسم من البرد ، كما أريد منه أن يكون سلاحاً للحياء والحشمة والعفة . كما لا يغرب أن يكون أصل الحب من هذا الحجاب الحاجز الجديد الذي صنع خصيصاً ليذهب الحياء ويقرب القلوب . فكان حلم ، وكان موعداً أو كان لقاء .

وما زال التفاهم بين بني البشر بالإشارات والحركات والأصوات والرموز يقدر زناده ويشمل ناره إلى أن اخترع الإنسان رموزاً صغيرة تعبر عن عواطفه وأفكاره وخلجاته ونوازعه ، فسماها الكتابة ونقلها إلى أجياله من بعده تنطق عن كل ما أنتجه الإنسان في الزمان والمكان ، وما يحيط به من عوالم ، فكان التاريخ ، وحقق الإنسان بهذا الاختراع العظيم العجيب مرحلة فاصلة حاسمة على درب الحياة الطويل بين ما قبل التاريخ والتاريخ .

وهكذا أبداع الإنسان البدائي أسس الحضارة وأشكلها ، ومظاهرها المختلفة ، وما كان ليتحقق له كل ذلك بسهولة ويسر . ففي وسط الفوضى واللبس والعموض والظلام والإشكال شق طريقه لير من حياة الحيوان الأعجم إلى حياة الإنسان العاقل بين عديد السنوات ، وطول التجارب ، وتكرار التلمسات ، وكثرة الإخفاق ، إلى أن فاز بالصر المبين في إشادة صرح الحضارة المتكامل البناء على الدوام .

وخلافاً لما يزعم ، بدأ أن الإنسان البدائي ، إنسان الكهوف والناغور ، كان ذكراً عبقرياً أريباً ولا تقل مهارته عن مهارة الإنسان الحديث . والفارق الوحيد أن الحديث يمتاز عن البدائي بتراكم المعارف والأدوات والوسائل أكثر من تفوق الذكاء نفسه ، فلقد كان الإنسان البدائي يحل المشاكل التي تعرض عليه في حياته اليومية بقوة الفكر المبدع معتمداً على نفسه ، ويخلق من لاشيء أشياء كثيرة : لقد أطلق الإنسان البدائي جميع صفاته الإنسانية ودشن أنواع السلوك التي تعتبر أساساً للحضارات الكبرى ، وأبداع فزاد إبداعه في قوته وقوة بني الإنسان في الأجيال المتعاقبة عبر الزمان . وهكذا نجد الحاضر بصوره المختلفة مديناً للماضي البعيد .

ولا يعلم على وجه الصحة والدقة نشأة هذه الانتصارات الحضارية الكبرى .
ومن السهل لتفسيرها الاعتماد على الظواهر والاحتمال والتخمين والافتراض . وأن
ما أتينا به من تعليل أو تفسير غير قاطع أو نهائى . وما ذكرناه إلا لتقرب إلى
الأذهان أن هذه الانتصارات البشرية يمكن أن تفسر على هذا النحو أو ذلك .
وما من مانع يحول دون تفسير آخر مقبول ومعقول . وما زال عالم ما قبل التاريخ
مجهولاً ، وما نعرف عنه قليل جداً من كثير جداً جداً . وكثيراً ما يندفع الواقع
الفكر ، ويغيب الحس النظر ، ولكن المهم أن نبعد الإيضاحات الجانبية بالاعتقاد
على المناخ والحاجات والاقتصاد ، فليست هذه إلا إمكانيات وضعت أمام الإنسان
الذكي الصادق النظرة ، المحب للاطلاع ، القوى الانتباه ، الذى التفت إلى ما يحيط
به فحاول الاستفادة منه وتسخيرها لصالحه .

ومنذ العصر الحجري الحديث لازم التطور فى الحياة والتقنية والفكر والفن تطور
اجتماعى . ولكن من الصعب التعرف به نظراً لفقدان الوثائق المكتوبة . ومهما
يكن فقد دشن هذا العصر حياة الرعى والزراعة ومجتمع البداة والاستقرار ، ثم
تلت ذلك تبدلات جديدة تسلسلت على فترات زمنية طويلة حولت الاقتصاد الريفي
والزراعى إلى اقتصاد عمرانى مدنى ، وحياة القبائل إلى ممالك وإمبراطوريات .

ظهر التحول الأقدم حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد فى بلاد الشرق الأدنى القديم
وحوالى ٢٠٠٠ فى كريت ، وتكرر فى الألف الثانية فى الصين ، وهيا مجيء الهنود
الأوربيين فى منطقة الحضارات القديمة تبدلات مشابهة تحتمت فى الألف الثانية فى
آسيا الصغرى وفى سورية ، وفى الألف الأولى فى إيران والهند وأوروبا . ثم تحول
عالم البحر المتوسط بأغريقية وروما ، وولد تبدلات هامة جديدة يتكّن اعتبارها
أصلاً لمرحلة أخرى . وفى أمريكا كان التطور متأخراً وغير تام . ولم يظهر إلا فى
العصر المسيعى عند المايا والتولتيك والآزتيك وسكان ييرو . ومما يلفت النظر أن
هذا التطور قد تم بالقرب من الأنهار وفى ظل الانعزال . وإذا أردنا حصر
الحضارات على المصور الجغرافى لوجدناها ضمن شريط ضيق يطوق العالم القديم بين
درجتى عرض ٢٠ و ٤٠ شمال خط الاستواء ، كما يطوق العالم الجديد بين مدارى
السرطان والجدى . أى فى مناطق معتدلة نسبياً ، خلو من الجملديات والحفاف .
والحر القانظ .

وفي العالم القديم تشكلت النواة الأولى ، ونمت شجرة الحضارات على ضفاف الأنهار الكبرى : النيل ، دجلة الفرات ، السند والقانج والنهر الأصفر حيث أوجدت الفيضانات الدورية شروطاً مواتية للخصب وحركة الأرض . ولكن الأراضي التي تممرها المياه تطلبت تنظيماً وتنسيقاً وعمليات هامة في التجفيف وحفر الأودية والرى . وبلغت اتبائها خاصة ، من كل هذه المناطق ، بلاد الشرق الأدنى القديم . فقد كانت تمتاز بسبق حضارى ، وتعتبر أقدم مراكز الحضارات الكبرى ، وبإشعاعها المبكر نحو إيران والهند والتوسط ، وبماضيها البعيد وهو الوحيد الذي وجدت له آثار وأطلال يمكن بطريقها استشفاف الماضي وإعادة بناؤه .

لقد سلك إشعاع هذه الحضارات مجرى دجلة والفرات والعاصى والأردن ، ثم اجتاز هضاب آسيا الصغرى ، وانتشر في الوديان الكبرى حتى شواطئ المتوسط وبلاد بحر إيجه في الغرب ، وحضارة الهند قبل الآرية التي كانت معاصرة لحضارة السومريين وترتبط بها بروابط وشيجة .

وتضافرت في هذا الإشعاع الحضارى القديم عوامل متعددة كالمبادلات التجارية والجاليات الأجنبية والحملات العسكرية والمهجرات الداخلية والانصهار السياسى في بوتقة الوحدة . وأوجد الزحف الصناعى والمد التجارى حاجات جديدة ومراكز إنتاج جديدة ، واندفع بهجرات خارجية نجحت عن تدفق الساميين الذين ما فتئوا منذ الألف الرابع ينتشرون في سورية وفي بلاد ما بين النهرين ؛ وعن تدفق الهنود الأوربيين في هذه البلاد ، في الألف الثالثة ، وتكاثرهم في الألف الثانية وتدميرهم الإمبراطوريات الشرقية في الألف الأولى .

وحول هذه المراكز الأولى في العالم القديم انتشرت الحضارة ، ولكنها ظلت محدودة الإشعاع ، متماثلة بالرغم من اختلافاتها الأصلية الموضوعية ، ويبدو ذلك في الحرف والتعدين والبناء والتقويم والتعداد والعقائد والطقوس والفنون ونمو الثروة وتشكل الطبقات الموجهة ومركبة السياسة .

وإذا سعدنا بالتاريخ المكتوب إلى ٦٠٠٠ عام على الأقل لوجدنا في منتصف هذا الدور ، أن الشرق الأدنى كان مركز الحضارة البشرية ، وعلى هذا المسرح العاج بالسكان قامت الزراعة والتجارة ، وظهر الحصان والعربة والتعد والتبادل والصناعة

والحق والإدارة وضريبة الدخل والرياضيات والطب وتنظيم الري وأعمال التجفيف والهندسة والفلك والتقويم والساعة والأبجدية والكتابة والورق والحبر والكتاب والمكتبات والأدب والموسيقى والنحت والبناء والحزف والأثاث الفاخر ووحدة الزواج والتجميل والجواهر والشطرنج والتزد وغيرها من الألعاب .

ولقد ورثت الحضارة الأوربية ، كل هذا بوساطة كريت أولاً ومن ثم إغريقية وروما . وفي الحقيقة أن الأقوام الأوربية لم تبعد الحضارة بل اقتبستها عن بابل ومصر ، كما لم تدشن إغريقية الحضارة بل أخذت منها أكثر مما أعطت ولم تكن إلا وارثاً ومستفيداً من الفنون والعلوم التي أوجدتها حضارة ثلاثة آلاف عام وأنت بها إلى مدن إغريقية بطريق السلم والحرب .

وإذا لم تكن إغريقية مبدعة للحضارة فقد نمت فيها جميع المظاهر الحضارية الاقتصادية والفكرية والفنية والاجتماعية نمواً أصيلاً حتى أصبحت رائدة ومربية لأوربا في آدابها وفنونها وتقنيها . ولعل أهم ما أنت به إغريقية من تجديدات كبرى ومكاسب عظيمة كان فكرياً . فقد علمت إغريقية الناس الوضوح والفكر العقلي والتجربي ، وأدخلت الملاحظة والتجربة ، وقفزت بالفكر العقلي في هذا المضمار قفزات حقيقية موفقة .

وضع الإغريق أسس العلوم وأعطوها الأسماء التي مازلنا نحفظ بأسمائها بعد ، وما زالت الحياة الفكرية في أوربا في أشكالها السامية تحمل طابع إغريقية . لقد عرف العقل الإغريقي بالإعتدال والإنسجام والتوازن المرن المتحرك ، حتى أن الزهد الفلسفي والصوفية أخذوا في إغريقية أشكالاً معتدلة . فكل ما في إغريقية إعتدال وضبط وبعد عن التعصب ونفي الغير . وربما كان لاختلاط الأعراق والجو واختلاف المؤثرات والملاحة والتجارة شروط مناسبة للملاحظة والتفاهم المتبادل تجد فيها الدقة والضبط والمهارة مجالاً صالحاً أكثر من مجال القسر والقوة . كما عرفت إغريقية القديمة في الفن بالبساطة والقناعة وضبط النسب ؛ وفي التقنية بمهارة الإختراع ؛ وفي الفكر بحب الإطلاع والبحث البعيد عن المنفعة . وفي الحقيقة أن الإغريق لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه إلا بنتيجة هذه الظروف السعيدة التي أحاطت بهم وأعدتهم زمناً طويلاً وأوجدت عندهم هذا التوازن الذين عرفوا به بين قوة التجريد والفكر العيني للشخص

والحضارة الإغريقية بالرغم مما يكتنفها من ظلال ، حضارة شعب نشيط ، فصيح شاعر ، عاقل فنان مفعمة بالتنوع ، غنية بما يثير النفس ويترك فيها انطباعات عميقة وطيبة . ففي عملها الدائب ، النافذ ، المهجى ، الشعر ، ومثلها العليا في الحقيقة والعقل والحرية والجمال لم تكن مربية لأبنائها فحسب بل لأبناء البشرية . لقد نبئت حضارتها على البحر المتوسط وامتدت منه إلى الشرق ترد جميلة ، إن صح التعبير . أو لتستولى عليه بجيش الأسكندر الأكبر الماكدونى وخلفائه السلوقيين وتوصلت إلى قلب آسيا وتركت فيها آثاراً لا تمحى .

وورثت روما إغريقية والشرق ولعبت دور الوسيط والناقل والناشر على مقياس واسع ، وامتازت بقوة توسعها ووحدتها . ودورها التربوى النشط الذى أخذته عن أئينة واعتبرت ما خيم عليه جناح النسر الرومانى متحضرأ وما كان خارجاً عنهما بربياً . وفى الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ساد سلام طويل دام أكثر من قرنين وتحققت فيه وحدة اللغة والحكم والحق ووسائل المبادلات ، كما انصلت مختلف المناطق الرومانية بشبكة طرق برية وبحرية وصلت إلى الهند والشرق الأقصى وتمثلت روما كل ما استطاع فكرها العملى أن يتلقى من نبات رقيقة من إغريقية ، واستخلصت من التماذج الهلنستية الأشكال اللاتينية التى أفادت أثر التربية فى الغرب . فمن أسبانيا وغاليا إلى الفرات نبئت المباني القومية العظيمة كالفطور ، وعجت المدن المزدهرة بالسكان من كل جنس . وكان الإمبراطور على رأس هذه الإمبراطورية إلهاً .

ولكن هذا البناء العظيم الذى شادته روما كان يتألف من قطع مستعمارة ومقتبسة ، لأن روما بعد أن فتحت البلاد بجيوشها العسكرية ، أخذت تستغلها وتعتمد عليها وتتكيف معها ، حتى أنها جعلت من نفسها عاصمة طفيلية تعيش على حساب الغير : فهى مدينة إلى إغريقية والشرق بتقنياتها وأدواتها وطرق إنتاجها وتجاريتها وعيشتها . ولم تأت بأى إسهام للعلم ، حتى أن سلطنة أباطرتها وتأليبهم والإدارة المدنية والعسكرية فيها كانت تشبه الملكيات الكبرى الإيرانية والهلنستية .

أما ما امتازت به روما فكان فى اللغة والبناء والحقوق وهى من مآتها الشخصية فقد كانت اللاتينية متينة واضحة مرنة . وأداة للتعبير والثقافة . وكان المهندسون

الممارون الرومانيون متمهدين أكثر منهم فنانيين ، ولكن هذا لم يمنعهم من استخدام الطرق الإغريقية والشرقية وتجديدها حتى ظهرت هذه المباني الرومانية على جنبات للتوسط شاهدة على عظمة الرومان وحضارة الرومان . أما الحق الروماني فكان أقوى آبدة حقوقية عرفها التاريخ قبل العصور الحديثة . فقد صهر في بوتقته مذاهب الشعوب الخاضعة ومبادئ الفلسفة الإغريقية ، وأخرج منها فقهاً رومانياً ما زال يرجع إليه كمصدر قديم من مصادر التشريع . ولقد وسع هذا الحق الروماني سيادة القانون ، ونقل إلينا فكرة الدولة المجردة ، وسلطة هذه الدولة ، وفكرة الحق التي بناها الإغريق على العقل والعدل ، ونسقتها بتعاريف صحيحة وتصانيف واستنتاجات كانت لفكر أداة تربوية خالدة .

غير أن الدولة الرومانية لم تقاوم الزمن كإمبراطوريات بلاد ما بين النهرين والصين ، لأنها كانت تعيش على الغير وتنقصها المرونة والاختراع فضلاً عن أن هذه الدولة عرفت بجمود الأطر وضعف الحركة وأخذ كل شيء على عاتقها . وأدى كل ذلك إلى انحطاط التماسك الروماني وخرابه فعانى في ظل الإمبراطورية الدنيا أزمة لازمتها طويلاً . وما كان من الغارات البربرية الكبرى إلا أن عجبت بالمصير المحتوم .

وفي العصر الوسيط سادت حضارات ثلاث كان لها الأثر الأكبر في تكوين الحضارة الحديثة في إشراقها الأولى وهي الحضارة البيزنطية والإسلامية والأوربية . لقد انتقل مركز الثقل بعد تداعى الإمبراطورية في الغرب الأوربي إلى القسطنطينية ولم تبق الحضارة بالنسجها سوى آثارها . بيد أنها تألقت تألقاً جديداً كسفت أمامه عظمة روما الغربية . وكان هذا التألق ثالث ازدهار عرفه العناق الودى بين الإغريق والشرق . فقد تشكل في إيونيا ، وتفتح في الممالك الهلنستية ، ولكنه كان في هذه المرة الثالثة أشد بريقاً وزهراً وبهراً للأبصار . فقد تجلجى فيه أبهة البلاط والثروة واللون والتزيين والعواطف الدينية والأسرار المسيحية التي عدلها الفكر اليوناني بقناعته وبساطته . ورأت الإمبراطورية البيزنطية تجديداً في الحياة السياسية في ظل جوستينيان شمل شواطئ المتوسط حتى إسبانيا ولكن هذه العودة الإمبراطورية إلى الغرب الأوربي كان دون عد أمام الفتح العربي . وظلت الإمبراطورية خلال ألف عام في دور الدفاع إلى أن هاجمها الأتراك العثمانيون وقضوا عليها .

وحصل تجديد في الحياة الاقتصادية فتح آفاقاً جديدة نمو الشرق الأقصى بواسطة البحر الأسود والبحر الأحمر . ودخلت إلى أوربا زراعة التوت والمنسوجات والحري والأقمشة والتقنية الشرقية والمطور والماج والتوابل والعماد والأحجار الكريمة والفسيفساء المختلفة الألوان على أرضية زرقاء أو ذهبية ، وتجدد الفن في بناء القباب البيزنطية ، وتمددت أشكال البناء ونماذج التصوير والتزيين والأناشيد الليتورجية والحاسة الدينية . ولكن بيزنطة نامت على الحضارة القديمة والمجد التليد فضعف عندها زخم الاختراع كما نضب معين الفكر .

وفي الحقيقة أن بيزنطة جمعت ودعت ونشرت الأبجدية الإغريقية والثقافة في الأوساط السلافية بين البلغار والصرب والروس والعرب ، واقتنت أكبر قسط من التراث القديم غزت به أوربا فيما بعد ، وحملت مشعل الفكر عالياً ونقلته ، ولكنها لم تجد فيه إلا قليلا .

وفي بلاد العرب ظل التخمر الذهني الواعي يعمل عمله في العقول والقلوب إلى أن تفتحت الحضارة العربية — الإسلامية . والجدير بالذكر أن هذه الحضارة نمت في بلاد تعتبر من أعرق البلاد التاريخية حضارة ، فعلى أرضها نبتت شجرة الحضارات القديمة بكل مقوماتها الأصلية ، وفيها تهيأت أسباب التقدم الحضارى بالنسبة إلى بقية أجزاء العالم الأخرى ، وكانت هذه الحضارات بمثابة المجموعة الحضارية الأم ، وعم إشعاعها جميع أرجاء المنطقة ، وجعل كل جزء منها يأخذ عن غيره ويعطى ما عنده . وعلى هذا النحو تم الاتصال الحضارى بين الأجزاء . ولم تخرج الحضارة العربية — الإسلامية عن حدود هذا الأخذ والعطاء . فعندما انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية وامتد في بلاد آسيا وإفريقية كان العرب يدعون إلى الإسلام وينشرون اللغة العربية ويتمثلون الحضارات المختلفة في البلاد التي حلوا بها . وكانوا مؤثرين ومتأثرين ، وناشرين ومبدعين لحضارتهم العربية — الإسلامية التي استمدت روحها الطيب من أصالة الشعب العربي المريق النشيط ، هذا الشعب الذى استطاع أن ينشئ من تراثه الحضارى المريق حضارة جديدة اشتركت في تكوينها وتنميتها هذه الشعوب المتعاقبة التي سكنت المنطقة على مر العصور التاريخية . هذه الشعوب التي تكررت وتقطرت فأنتجت الشعب العربى المؤمن بالقيم الروحية والمثل الإنسانية العليا

التي نقلها ونشرها بين الشعوب الأخرى ، وجعل هذه الأخيرة تدين بها وتسهم في تعميمها ونشرها .

والتمتع للتاريخ العربي يرى أن العرب خدموا الحضارة الإنسانية بما قدموه من منجزات في عالم الأدب والعلم والفلسفة والدين والفن ، كما يرى أنهم لم يقصروا في أى ميدان من الميادين ، فضلا عن أنهم كانوا رسل حضارة وواسطة اتصال حضارى بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة .

وكان يقابل هذا التألق البيزنطى والتفتح العربى خيال غربى ران على أوروبا قرابة سبعة قرون ، وطوال غارات كانت تتعاقب عليها بين فترة وأخرى فتمعمل فيها الهدم والتخريب . وظلت هذه حال أوروبا إلى أن احتكت بالشرق والإسلام ونهلت من النبع الصافى فى مختلف الميادين ، وأخذت عنه الشيء الكثير ، فاخضر العود بعد الجناف ، وتفتح الزهر بعد طول الشتاء والبرد ، واستيقظت أوروبا بعد نوم قلق ، وجرى فى أوروبا ما جرى فى إفريقيا البدائية ، فتأثرت بعوامل متعددة ، ودفعات خارجية وعفوية داخلية ، ومبادهاة فردية وجماعية ، وعادت السير فى ركب الحضارة وتفجرت فى القرن السادس عشر عن نهضة ظلت تعمل بدأب وتقدم إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم .

والحضارة الحديثة التي نعيش بين ظهرانيها حضارة عامة لا تتعاقب ببلد من البلدان ، أو بشعب من الشعوب ، لقد أسهم فى بنائها أبناء الانسانية جميعاً فعدت لهم تراثاً ونتائجاً دائماً وخالداً ، ومن حقهم أن يفخروا بها لأنها نتيجة جهود مديدة وأعمال دائبة وأفكار نشيطة مجددة وعقريات أصيلة ، وأطاح بعيدة وزمن عريق . بيد أن الحضارة فى عصرنا الحاضر آخذة بالتسارع والنماء بدرجة تفوق حد التصور . ولا شك فى أن الفضل فى ذلك يرجع إلى تحرر الإنسان من القيود التي كانت تكبل نشاطه وفاعليته عبر الزمان . وتحمت مؤثرات كثيرة ومتنوعة . وهذا التحرر جعله يتخلى ويطلق لنفسه العنان فى آفاق المعرفة والإبداع ، ويستخدم قوى الطبيعة والإمكانات التي تفسحها أمامه لبيدع منها الوسائل التي تؤمن رفاهه وعيشه وتحقق آماله وأحلامه . ولقد حاول بعضهم تفسير الأسباب التي دعت لثمر فردية الإنسان البدع . صانع

الحضارة ، باعتبار عرقية ، أو بجزئية جغرافية مزعومة . ولكن الذى يجب أن يقال فى هذه المناسبة هو أن هنالك أسباباً أشد وأقوى . ويأتى فى مقدمتها أقول الإقطاعية وإعادة بناء الدولة على أسس جديدة . وتقدم العلاقات التجارية . وتكامل طرق الإنتاج . ونزاع الطبقات . والأزمات . وتحسين مستوى الحياة . وتنظيم العلاقات الدولية والمبادلات الثقافية . واتصال الشعوب ببعضها بين أخذ وعطاء . وإغناء بعضها بتجارب بعض . ولا شك فى أن أوربة أتت متأخرة فى آفاق المعرفة فأفادت من تجربة الإنسانية المديدة وشعت إلى ما يتجاوز ذاتها وحدودها القارية . واندفعت فيما وراء المحيطات لتكتشف العوالم الجديدة وتغنى خبرتها بمعارف تجرئها . ولقد كان من هذا الاتصال ثورة فى الاقتصاد الأوروبى ظهرت آثارها فى تغيير قيم المجتمع وهز كيانه من أساسه بنمو طبقات بورجوازية تجارية ومالية لم تكن فى الماضى شيئاً مذكوراً . وارتفعت بجهدا وعصاميته إلى مصاف الأمراء ؛ كما ظهرت هذه الآثار فى نقل تجربة أوربا الحضارية إلى أمريكا التى تفتحت من إمكانات ضخمة . حتى أن أوربا لم تعد إلا قرماً أمام هذا العملاق الكبير . وبعد أن كانت أوربا تفخر بحضارتها الأوربية إذا بها تخفف من غلوائها وتسمى هذه الحضارة الناشئة عن اتصال الفارتين « الحضارة الغربية » تارة ، و « الحضارة الأطلسية » تارة أخرى .

ولكن تجربة البلاد الشرقية ومنجزاتها الحضارية بلغت من التقدم درجة أصبح من غير المقبول معها أن تبقى هذه الحضارة كما يريد الأوربيون غربية أو أطلسية ، ونعتقد أن من الخير أن يطلق عليها اسم الحضارة الحديثة والمعاصرة تمشياً مع روح التاريخ والفهوم الحضارى الواسع والقواصل البشرى الدائم والتسارع الذى يجب للمسافات ويجعل القارات قارة واحدة أو بلداً واحداً ، والبشر ، مهما تئامى بهم لزمان والمكان ، أبناء إنسانية واحدة .

وهذا الانفتاح العالمى ، المتسع باستمرار ، مدين ولا شك إلى تقدم العلم والتقنية وتطبيقاتهما فى سرعة النقل والمواصلات . كما وسع التقدم نتائجه فى حقل العلوم الاجتماعية والفسية . وإذا لم تستطع هذه العلوم أن تراكب العلوم المادية فما لا شك فيه أنها سائرة فى نفس الاتجاه من التقدم المستمر نحو وضع أفضل يشجع على إطراح المعارف القديمة والعلوم الثقيلة وما يلابسها من أوهام وتخمينات ؛ وعلى الإيمان بأن

الإنسان يركب الخطر ويتمتع المجهول وينطلق بالظلام ليكتشف لبس هذا العالم الكونى المحدث به ويحمله مفهوماً . وينقل اكتشافاته إلى بنى جنسه دون أن يجعل منها أسراراً وما زال يحاول أن يعمر هذا الكون ، ويخلق من ضعفه الظاهر قوة أمام الموت الظاهر ، هذه القوة التي كانت في إنشاء الحياة وبنائها ولم تكن مجرد أقوال . ومن يدري أن يوماً سيأتى على البشرية يقدر فيه المؤرخون أن جميع التحولات التاريخية ليست سوى أزمت وظواهر لنمو العقل البشرى الكاسح الذي يتحدى الظلام والمجهول لينقذ الإنسان من حمأ الطين الوحل .

وقد اختلف الحوار في هذه التحولات البشرية والتطورات التي يمر بها الإنسان من مرحلة منحطة إلى مرحلة أسمى . فرأى رجال الدين أن أسمى ما في الإنسان من الله ؛ ورأى المفكرون العلمانيون أن أسمى ما في الإنسان من الإنسان . ولكن المذهب الدينى لا ينفى عن الإنسان قيمة السعى والجد والدأب . وهذا يعنى أن المذهبين يستقطبان الإنسان والسمو به إلى تحقيق إنسانيته ومكارم أخلاقه .

وذهب التفكير إلى أن التمييز بين الإنسان والعالم لا تنجم عنه حقيقة ، وأن العالم خبث معدنى ، وعلى الإنسان أن يندغم ويندمج في هذا العالم ليعرف معناه الحقيقي ؛ وأن كل ما أتى به العقل البشرى من أفكار وعلوم وتقنية مع كل ما تضمنته من انعكاسات وردود فعل ونتائج في المجتمع الإنسانى يجب أن يكون منها تفتح شخصية الإنسان ونموه في سلوكه العقلى والروحي ، وأن العالم ليس عقلاً كله . وأن الإنسان ظل يعانى أزمة وجدان خلال ثلاثة قرون قضاها في أزمة فكرة الحقيقة وهو يشعر ويفهم ضعف هذه الفكرة إلى أن أعاد النظر في تقدير قيمة العلم وحدوده . وإعادة النظر هذه في الموضوعية العلمية تعتبر بذاتها وبما تتضمنه من استعداد وقابلية كسباً ثقافياً وتقديراً للقيم الإنسانية البدعة القائمة على المغامرات الشخصية .

وفي الحقيقة أن تاريخ الحضارة ، بكل ما وصلت إليه في عصرنا الحاضر ، إنما هو تاريخ ثورة إنسانية مستمرة قام بها الإنسان على مزاعم الرضوخ والرضى بالقدر المحتوم ؛ أو على إنكار مزاعمه في تطاعته إلى الكرامة ، إنه تاريخ إنكار الاستسلام باسم الإنسان ، وأن المعيار الوحيد الذى يجب الاعتماد عليه في هذا السبيل ، هو الثورة ، فهي التي تنظم الحضارة وتحميها وتبدعها عبر التاريخ وعبر فوضاه واضطرابه .

بالتقدم الدائم . يضاف إلى ذلك أن هذا الاعتقاد وجد صهراً وفي الأخلاق البشرية نفسها . لأن المثل الأعلى لدى الإنسان تبدل أيضاً . وأصبح يقوم على النضال والجهد والتوسع والرقى والتحول وحب التطلع إلى الجديد وعدم البقاء على الرقابة . وعدم الإنصياع للعقبات مهما كانت . وإن كان هنالك شيء من ذلك فإلى أجل محدود ريثما يستكمل وسائله ويعد عدته .

ولقي هذا التقدم صداه في أفق العمل والعمال بعد نهوض الثورة الصناعية . وما فتئت الأطر البورجوازية والطبقة الكادحة في ازدياد . ولكن الاتجاه العام يسير إلى التخفيف من ثقل الأولى وسيطرتها وتحكمها من حجة . وإلى النهوض بالثانية من حيث تحسين شروط حياتها المادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من حجة أخرى . والجهد مبذول للافادة من قوى الإطارين للاسهام معاً في الحياة القومية بشكل أو ثقل وأدعى إلى إزالة التناحر الطبقي الذي يمكن أن يهدد المجتمع بالخراب والدمار . ولكن البشرية لم تتوصل بعد إلى تقنية أو قانون يمكن أن يؤمن هذا السلام الاجتماعي المنشود .

والملاحظ في عصرنا الحالي أن الوعي العام يحتاج جميع الطبقات الاجتماعية . وأن نظام التسلسل الذي يسود هذه الطبقات لم يعد حقيقة مستقرة ومقبولة لا مبدل لها . بل هو غليان مطامح ثور ، تخفق حيناً وتنجح أحياناً ؛ وأن التطور بدل معنى القيم ومكاتبها . فقد أضعف النخبة القديمة . وهياً المكان لنخبة جديدة حتى أن مفهوم الزمان قد تبدل معناه . فقد كشفت الشعوب عن تاريخها . ووعت فرديتها وأصالتها . ولم يعد هذا العصر بطلياً أو فلسفياً أو نقياً أو أخلاقياً . إنه عصر الحركة والميكانيك المؤسس على العلم الذي يطغى على الحياة الأخلاقية . فبعد أن شغلت مشكلة الزمان الأفكار . وانتهت بها في الغالب إلى الصوفية أو إلى الخلاعة أو بتعبير آخر إلى الإيمان وعدم الإيمان . أخذ مفهوم الزمان طابعاً إنسانياً وتاريخياً .

ويبدو أن قيمة حضارة اليوم تعتمد على إرادة الوعي وإرادة الكشف . ومن هذه الناحية تنفذ الحضارة إلى الإيمان بالإنسان وقيمه . فلقد جابه الإنسان العالم الجهول وما زال يحاول النفوذ إلى العوالم الجهولة ليكشف كنهها وحقيقتها . وبالرغم من أن مصير الموت ما زال يهدد البشرية ويجعلها تخنى الرؤوس أمامه . فما زال

وهذا المعيار الناجم عن الثورة لا يمكن أن يمش إلا بالثورة ، فيها يستطيع أن يفجر كل ما يخبئونه من إمكانيات الإبداع ، وكل ما يمكن أن يكون . وتستظل ثورة الحضارة مشتعلة ولن تنطفئ قبل أن يموت آخر إنسان .

* * *

إن هذه اللوحة التي رسمناها عن تاريخ الحضارة ، تبين لنا أن تاريخ الإنسان يحوم حول علاقته بالمجتمع وتفاعله معه ومع الحضارة التي أبداعها ، وأن الإنسان لم يصبح إنساناً ولم تتفتح مواهبه الإنسانية ، ولم تنم معارفه وخبراته إلا عن طريق المجتمع . ولولا هذا الوجود الاجتماعي الذي وجد فيه الإنسان لما استطاع أن يكون حضارة . لأن اجتماع البشر واتصالهم مع بعض وتفاعلهم مع البيئة أساس حقيقي في نشأة الحضارة ونموها وتطورها وازدهارها .

وعلى الرغم من أن الأفراد الذين يكونون مجتمعاتهم ينشؤون حضارته وينقلونها ، فإن أي حضارة لا بد لها من أن تعتمد على إسهام عدد كبير من الأفراد من المجتمعات المختلفة . والمجتمعات البشرية ، منذ وجدت في نشأتها الأولى ، وجدت متصلة يأخذ بعضها عن بعض ، ويمطى بعضها بعضاً . وتفيد من تجارب بعضها . ومن هذا التفاعل الاجتماعي الذي تم بين هذه المجتمعات اتسع نشاط الجماعة البشرية ومجربوها الحضارى . والمشاهد أن الحضارات في نشأتها تعتمد على إمكانياتها ومكتسباتها الأولى في بيئتها أو مكتسباتها من البيئات الأخرى . فإذا نمت خرجت بشكل موجات تمتد في الزمان والمكان ، ثم لا تلبث أن تنقلص أمام موجات حضارات وافدة أخرى قتية . ولكن لا شيء يخلق من العدم ، فكل حضارة تنشأ وليدة أجيال ومكتسبات سابقة ، ومربية لحضارة جديدة . لقد كانت حضارات الشرق القديم بسبقها الحضارى أما مرصفاً لحضارة اليونان . وهذه مربية لحضارة الرومان . ثم دار الدهر دورته فعاد الشرق يحمل مشعل الحضارة لينير حللك العصور الوسطى في قارات العالم القديم . وليكون بمثابة المغذى والمخضر لحضارة الغرب وامتدادها عبر القارات في العصور الحديثة . وفي هذا المعنى يشترك بناء الإنسانية في البناء الحضارى للتجدد ، ويزول الادعاء بالتفوق العنصرى والشروط العرقية للحضارة . وفكرة الحضارات الكبرى التي صنعها العرق الآرى . والقول

بأن هنالك نوعاً من البشر من شأنه أن يصنع الحضارة ويفيد منها ويحافظ عليها من الضياع وهو الجنس الأبيض عامة .

والتأمل في تاريخ الحضارة يرى أنها لم تكن لتظهر في قارة دون قارة ، بل ظهرت في عصور مختلفة . وفي أماكن متعددة على سطح الكواكب . وأن الحضارة من حيث الأصل لا وطن لها ، وأن أرقى الشعوب المتقدمة حضارياً لمدينة إلى تلك الشعوب البدائية في اختراعاتها الأولى مهما كان شأنها وقيمتها وأن الاختلافات العرقية ليس لها أى تأثير على التاريخ البشرى العام ، لأن القول بنقاوة دم بعض العروق وتفوقها على غيرها زعم باطل لا نصيب له من الصحة فضلاً عن أن العلم يرفضه ولا يقره . فمنذ عصور ما قبل التاريخ التفاضلية في القدم والمجتمعات البشرية على اتصال دائم . مهما كان هذا الاتصال بطيئاً أو سريعاً متسارعاً . واختلاط مستمر ، وعلاقات متواشجة ، وما من عرق أصيل اليوم على سطح الأرض . فقد أسقطت الاعتبارات العرقية من حساب الحضارة وأخذت العلاقات البشرية الدائمة السلم والحرب مكان الصدارة في تفتح الحضارة وازدهارها .

ومن المسلم به أن أول ما توجه إليه الإنسان مذ وجد على سطح الأرض كان المأكل والملبس والسكن . وأن البحث عن هذه المطالب الأولية كان أقدم نشاط عرفه الإنسان . وبنيت عليه الحضارة وما زالت هذه الحقيقة قائمة مهما اختلفت صور النشاط . وغير أن هنالك عوامل أخرى لها أهميتها . وبخاصة عندما تتجاوز الإنسان مرحلة العيش وأخذ يتطلع إلى الحياة الأفضل . فهو لا يرغب في العيش وحده مجرداً من كل رفاة وزخرف . بل إنه يطمع في الحياة وفي كل ما يزينها ويجمها رخصة جميلة وجميلة دوماً في ناظره . وإنا لنشاهد في تاريخ البشرية أن كثيراً من أنواع النشاط الانساني الطموح يفترض البذل الثقافي والتضحية والمباطنة . مما هو بعيد عن كل مؤثر اقتصادي . والرأى الذى نذهب إليه هو الأخذ بالأسباب المتعددة للتكاملة التي يعتمد بعضها على بعض ويساند بعضها بعضاً دون الاكتفاء بسبب واحد .

ولا شك في أن الطبيعة تهيب إمكاناتها للإنسان بقدر ما تخلق أمامه من مصاعب والإنسان بما أوتى من نشاط وفكر يفيد من إمكانات الطبيعة ويطوعها حسب حاجاته ورغباته . ولكن يجب أن نقر بأن الحضارة بالرغم مما وصلت إليه من تقدم

ورقي. مازالت عفة رقيقة هشة أمام بعض العوامل الطبيعية كالشروط المناخية القاسية والحركات الأرضية التي يمكن أن تؤخر نموها أو تقيد نشاطها أو تطيح بها. وبالمقابل إن بعض هذه الشروط يمكن أن يساعد على النشاط الحضارى .

على أن ثمة بعض الشروط البشرية التي يساعد توافرها على نمو الحضارة وازدهارها كوجود النظام السياسى واستقراره واستتباب الأمن ووجود النظم الأخلاقية والإجتماعية التي توجه الناس وتعطى الحياة قيمة ومعنى عن طريق التربية والتعليم والإرشاد . غير أن تدنى الأخلاق والطباع والقيم وتدهور النظام الاجتماعى والأخلاقى والتربوى والاقتصادى يمكن أن يؤدي إلى فساد المجتمع وانحطاط الحضارة واضمحلالها . وبخاصة أن فقدان القوى الخلافة ، أى سيادة العقل على الغريزة . فى نظر شبنغلر . وإخفاق الألفية المبدعة . فى رأى توينبى . التي تؤهلها مواهبها لقيادة المجتمع وتوجيهه فى تدبير الاستجابات للملائة لبعض التحديات التي تعترض المجتمع . وإنا لترى أن آراء معظم الفلاسفة والمفكرين تتشابه كثيراً فى الطور الأخير للحضارة وهو طور التحلل النهائى الذى يقترن بالقم الفكرى وعدم القدرة على الخلق والإبتكار . ومن هنا تبدو ضرورة : وهى أن الحضارة . باعتبارها إبداعاً بشرياً . بحاجة إلى كل ما يفيدها باستمرار ويحفظها من الانحطاط والضياع .

والحضارة فى حد ذاتها روح . ولكن عامل العصر الحاضر يضيف إليها الكم والعدد . وإذا نظر إليها بأنها مجموعة من السلوك والعقائد والنظم التي يحافظ عليها ، وتحول دون انقطاع ، أو بالتباين بين استهلاك السلع والقدرة على إنتاجها ، أو التفكير بالعد والاستعداد له ، أو بأنها جملة مكاسب ، أو قابلية للحصول على مكاسب جديدة ، أو بالاختلاف بين الكينونة والسيرورة . فيجب أن ينظر إليها من حيث أنها كينونة و سيرورة معاً ، ومكاسب وتمتع بهذه المكاسب وتطلع إلى مزيد من المكاسب الجديدة ، أو بتعبير آخر يجب أن ينظر إلى الحضارة من حيث أنها حاجة إلى بعض المعارف أكثر من تملك هذه المعارف ، وقابلية إلى العمل أكثر من الاعتياد على بعض أشكال العمل ، وبمحت عن مظاهر الجمال أكثر من تذوق التأمل . إنها استعداد عاطفى نشيط داخلى فى الكائن أكثر منه ركام ثروات خارجية فكرية أو مادية . إنها جو من التأثير الدقيق المعقد يحيط بالحياة كلها . وكما يشف الجمال عن

الفكر في الاشياء ، فكذلك تشف الحضارة عن الفكر في التاريخ ، ولذا كان نصيب الجهود المبذولة لتحقيق الجمال فيها عظيماً .

ومهما اختلفت وجهات النظر في الحضارة فهي تبدو كسلسلة متكاثرة ومتنوعة الحلقات لكل ما أتى به الفكر الإنساني عبر الزمان والمكان . ولذا فإن الحضارات الخاصة تتواكب وتنسجم مع بعضها لتؤلف تاريخ الإنسانية ونموها في مختلف ميادين الحياة وبما فيها من أنماط معيشة وأخلاق وعلوم وتقنية وعقائد ونظم وآداب وفنون وأديان وفلسفات . وهكذا يمد الإنسان نفسه بالفكر عبر الزمان والمكان .

ومن غير الممكن أن تصور الفكر دون حريته لأن أعظم ما في الفكر حريته . إنها شرط إبداعه وإنتاجه ، ولأنها تساعد على التحرر من قوانين الطبيعة ، هذا التحرر صانع الحضارة البشرية وإبداع الإنسان الحالم .

وبعد . ففي هذا العالم المتلاطم بالأفكار والعقائد . بل والوساوس والهواجس أيضاً وبال حرب والخوف من الحرب ، يملك إنسان العصر الحاضر الضياع والنزق ، بعد أن أصبحت الحضارة مهددة بالدمار ، وليس الفن التجريدي وأدب اللامعقول والقمصان السوداء الشيبية الشائخة إلا ظاهرة معبرة عن هذا الفلق النضائي الذي يخامر ذهن الإنسان فيجعله يتساءل عن مصيره ومصير الحضارة التي أبدعها وشادها على مر الزمان بالجهد المتواصل والعمل الدائب الحثيث . ومن عجب أن الإنسان صانع الحضارة ، يقف موقفاً متناقضاً . فهو ينحط على الحضارة في الوقت نفسه يهددها بالخطر والفناء والقضاء عليها وعلى نفسه أيضاً ، إذا ماركب متن الطيش واستسلم لغرائزه الحيوانية . وأفلت زمام القيادة من يده .

ترى هل يبقى الإنسان أنيساً أم يعود وحشاً إلى حياة الغاب ؟!